فأخباره صدق، وأحكامه عدل، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وكيفية تصديق القرآن لما بين يديه من الكتاب من وجهين:

الوجه الأول: أن الكتب السابقة ذكرت منه شيئًا فنزل مِصْداقًا لها.

الوجه الثاني: أنه يُصدِّقُها، ويقول: إنها حقٌّ وصدقٌ، ولهذا يجب علينا أن نؤمن بالكتب السابقة، فقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مُصَدِّقٌ لما أخبرت به، ومصدِّقٌ لها بالحق.

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الهيمنة هي السيطرة والسلطة، يعني: أن القرآنَ ناسخٌ لما سبقه من الكتب.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا ترتيب على ما سبق، فقوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ فـ«الفاء» هنا للسببية، أي: فبما أنه مهيمن احكم بينهم بما أنزل الله.

فإن قال قائل: بعض الناس إذا نصحته في الدُّخان قال: ليس حرامًا؛ لأن القرآن لم يحرم هذا، وإذا أوردت عليه آيةَ الأعرافِ، قال: القرآن لم يحرم هذا؟

فالجواب: إن القرآن قد يشير إلى أصولٍ وقواعدَ تتفرَّعُ منه الجزئيات، فقول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] يفيد أن كل شيء يؤدي إلى ضررٍ في البدن، فإنه حرام، والدخان لا يشكل على أحدٍ الآن أنه ضارٌّ، ولهذا نجد الأمم الراقية في طلب الدنيا والمتعة فيها تحرمه، خصوصًا في

الأماكن العامة، وقد ذُكر لي أن قوادَ الطائرات إذا حاذوا بعض الولايات في أمريكا امتنعوا من التدخين وهم في الجو قبل أن ينزلوا إلى مطارات الولايات المتحدة، وكذلك في الأماكن العامة، فإذا كان كذلك، فقد قال الله في القرآن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقد استدل عمرو بن العاص بهذه الآية على جواز التيمم خوفًا من التأذي بالبرد [1].

فإن قال قائل: إن بعض البلاد يشغلون أشرطة قرآن في مكبر الصوت، ويكون في أيامٍ مخصصة، فهل هذا مشروع؟

الجواب: هذا من البدع؛ لأنه لو كان القارئ يقرأ فعلًا والناس يستمعون إليه، قلنا: هذه بدعة، وخطأ أيضًا على الناس؛ لأن من الناس من يَوَدُّ أن يقوم يصلي، فكيف يصلي مع هذا الصوت العالي، ومنهم من يريد أن يقرأ لنفسه، فكيف يقرأ مع هذا الصوت العالي؟! فهذا غلط، وينبغي لطلبة العلم إذا ذهبوا إلى بلاد تعمل هذا العمل أن يُناصحوهم، لكن لا يقومون عليهم في المسجد، ويقولون: هذا خطأ، هذه البدعة، بل يتكلمون مع المسئولين عن المساجد، ولا يقولون: هذه بدعة بهذا اللفظ؛ لأن في هذا تنفيرًا لهم، بل يقولون: هذا يؤثر على الناس، يؤثر على المصلي، وعلى من يريد أن يقرأ لنفسه، وربما يؤدي أيضًا إلى امتهان القرآن، وهكذا.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت، معلقًا.

«**والقرآن الكريم مصدرُ الشريعة الإسلامية التي بُعِثَ بها محمدٌ ﷺ إلى الناس كافَّةً، قال الله -تعالى-:** ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١-٢].

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضًا كما قرره القرآن، قال الله -تعالى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]».

الشرح

لما سبق بيانُ عظمةِ القرآن الكريم، وما وصفه الله به من الأوصاف، ذكر أمرًا مُهمًّا، وهو أن القرآنَ الكريم هو مصدرُ الشريعة الإسلامية، وكذلك السنةُ النبويَّةُ، فلا يمكن أن يؤخذ بتشريع أي مصدر كان، وأي إنسان كان إلا من الكتاب والسنة، وعلى هذا فلا يجوز أن يُشْرَّع لعبادِ الله شيءٌ من القوانين الوضعيَّة؛ لأن القوانينَ الوضعية لا تخلو من حالين:

إما أن تكون موافقةً للشرع؛ فنقول: إن الذي شرعها هو الشرع، ولا كرامة، ولا منَّة للقوانين الوضعية.

وإما أن تكون مخالفةً للشرع؛ فيجب علينا نبذُها وطرْحُها، وأن نعلم

أنها باطلةٌ؛ لأن الشريعةَ حقٌّ، وما عداها باطل، وأنها لا يمكن أن تُصْلِح الخلق، ولا يمكن أن يُصْلِح الخلقَ قانونٌ وَضَعَه بشرٌ مخالفٌ لشريعةِ الله؛ لأن هذا البشر الذي يظن أنه وضع ما يصلح للخلق:

أولًا: هو قاصر في نفسه، وفي عقله، وفي معرفة ما يُصْلِح الخلقَ.

ثانيًا: إذا قدَّرْنا أن الرجل الذي وضع القانونَ عنده عبقريةٌ وذكاء، فإنما يَعْرِف ذلك فيما حوله، أما ما كان منه بعيدًا عنه من الأماكن، فإنَّ الناسَ يختلفون فيما يُصْلِحُهم.

ثالثًا: إذا قدَّرْنا أن هذا الرجل الواضع للقانون عبقري، وذكي، ويعرف المصالح، فإنما يعرفها في زمنٍ محدودٍ، وهو زمنه الذي يعيش فيه، وأما فيما بعد فلا، ولهذا نعتبر من الجهل العظيم، بل من الكفر إذا قامت البينة والحجة على واضع القوانين التي وضعها إما يهود، أو نصارى من أزمنة بعيدة، ووضعوها بين أيدي الناس يتحاكمون إليها، نرى أن هذا خطأ عظيم، بل هو كفر إذا لم يكن هناك تأويل من الفاعل.

وعلى هذا فنقول: إنه لا مصدر للتشريع والحكم بين الناس إلا الكتاب والسنة، وقد ضل من ضل حيث قال: إن الكتاب والسنة إنما يبين المنهج الذي يكون بين الإنسان وبين ربه فقط، أو فيما بين الخلق في الأحوال الشخصية، كالمواريث، والأنكحة مثلًا، نقول: لقد ضللت ضلالًا مبينًا، وكذبت قوَل الله -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ونقول أيضًا: دعواك هذه يُكَذِّبُها القرآنُ الذي تُؤمِن به، فإن أطولَ آيةٍ في كتاب الله هي آية الدَّيْن، وكلُّها في معاملات الخلق، ثم إن الله -عز وجل- يُبَيِّنُ في آياتٍ كثيرةٍ أشياءَ غير التي في آية الدَّيْن، كلُّها تتعلَّق بالمعاملات، والأنكحةِ، والفرائضِ وغيرِها.

فالحاصل: أنَّ من ابتغى الهُدَى مِنْ غير كتاب الله أضلَّه الله -عز وجل-، وكذلك أيضًا السنة النبوية مصدرُ تشريعٍ أيضًا، ولكن إذا صحَّتْ عنِ النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ لأن ما لا يَصِحُّ ليس بعُمْدَةٍ، ولهذا نقول: إن الذي ينظر في القرآن ينظر من وجهٍ واحدٍ فقط، وهو دلالةُ القرآن على الحُكْم، أما الذي ينظر في السنةِ فيَجب عليه نظران:

النظر الأول: ثبوت هذا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

النظر الثاني: دلالته عليه.

أي أن المستدلَّ بالسنة يحتاج إلى أمرين: النظر في ثبوتِها، ثم النظر في دلالتها.

فإذا قال قائل: ما الدليلُ على أن السنَّةَ تشريعٌ؟

قلنا: القرآن، واقرأ قوله -تعالى-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، قوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: هو القرآن، وسمي فرقانًا؛ لأنه يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، وبين أولياء الله وأعداء الله، وبين كل الأمور المختلفة، ولهذا لا يوجد في الشريعة شيء مختلف إلا والعقل يقتضي اختلافه، أو متفق إلا والعقل يقتضي اتفاقه.

وفي قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ دليل على عموم رسالة النبي -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، هذا أيضًا يدل على أن الكتاب الذي يجب أن نسير عليه هو القرآن.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢] فقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ «**اللام**» هنا مفخمة، وذلك إذا وقفت على الآية التي قبلها، وإن وصلت فهي مرققة؛ لأن ما قبلها مكسور ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، أما إذا قلت: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، ثم قلت: ﴿ٱللَّهِ﴾ فتفخم.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما دام هو مالك السموات والأرض، وجب أن يكون الحكم إليه، وإلى ما نزل من كتابه.

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:٢]، والكافرون هم الذين لا يهتدون بهذا القرآن، فويلٌ لهم من عذابٍ شديدٍ، سواء قالوا: إن محمدًا -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لم ينزل عليه القرآن، أو قالوا: إنه نزل عليه القرآن، لكن ليس على العالمين، بل لبعضهم.

وسنة النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- تشريعٌ أيضًا كما قرره القرآن، قال الله -تعالى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وجه

الدَّلالة: أن الذي يطيعُ الرسولَ قد أطاع الله، ومعلومٌ أن المراد بطاعة الرسول هنا ما لم يَرِدْ به القرآنُ، وأما مَا ورد في القرآنِ فالطاعةُ فيه طاعةٌ لله، لكن إذا لم يكن في القرآنِ، وأمرَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- بشيءٍ، أو نهى عن شيءٍ، فطاعتُه طاعةٌ لله، وهذه دلالة واضحة، أن ما جاء في السنة تجب طاعته، كما جاء في القرآن، ومن لم يَفْعَلْ فلم يُطِعِ اللهَ.

وقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠]، كقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء:٥٤]، ومن تولَّى ولم يُطِع الرسولَ، فإن النبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قد بلَّغَه وبرئ منه.

وقال -تعالى-: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦]، نقول في هذه الآية كما قلنا في الآية التي قبلها، ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا فيما نهى عنه الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- أنَّ مَن عصاه فقد ضلَّ، أما ما نهى الله عنه، فإن مخالفته معصيةٌ لله، فدلَّ ذلك على أنَّ ما جاءَ عن الرسولِ حُجَّةٌ، كالذي جاء عن الله.

قال -تعالى-: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، وهذه الآية وإن كانت في الفيء، وقسمة الفيء، فإنه إذا كان الله -تعالى- قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، فهو شاملٌ لما أتانا من شريعة الله، وما نهانا عنه من شريعة الله.

وقال -تعالى-: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران:٣١]، وهذه الآية تسمى آية المحنة، يعني: آية الامتحان والاختبار في قول من ادَّعى أنهم يحبون الله، فقال الله -عز وجل-: ﴿قُلۡ﴾ يعني: يا محمد،

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فهذا هو الميزان، فمن ادعى محبةَ الله، قيل له: إن كنت صادقًا فاتَّبع الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وإن قلتَ: إني أحبُّ اللهَ ولم تتَّبع الرسولَ؛ فأنت كاذب.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ لم يقل: فاتبعوني تَصْدُقُوا فيما قلتم، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ففيه إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله -عز وجل-، وأما دعوى أن الإنسان يحب الله فهذا قد يدَّعيه كلُّ واحدٍ، فالشأنُ كلُّه أن الله -تعالى- يحبه.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بيَّن الله -عز وجل- أنَّ مَن اتَّبَع الرسول -عليه الصلاة والسلام- حصلت له فائدتان:

الأولى: محبةُ الله.

والثانية: مغفرةُ الذنوب.

* * *

رقم
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١- نُزُولُ الْقُرْآنِ

«نَزَلَ القرآنُ أولَ ما نزلَ على الرسولِ ﷺ في ليلةِ القدر في رمضانَ، قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وَكَانَ عُمْرُ النبيِّ ﷺ أولَ ما نزل عليه أربعين سنةً على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعطاء، وسعيد بن المسيِّب، وغيرهم. وهذه السِّنُّ هي التي يكون بها بلوغ الرشد، وكمال العقل، وتمام الإدراك.

والذي نزل بالقرآن من الله تعالى إلى النبي ﷺ جبريلُ، أحدُ الملائكة المقرَّبين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]».

الشـرح

قوله: «نزل القرآن أول ما نزل» يعني: ولم ينزل كلُّه، بل أول ابتداء نزوله كان في ليلة القدر في رمضان، أما كونه في ليلة القدر، فلقوله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وأما كونه في رمضان فلقوله -تعالى-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وبهذا نعرف أن ليلة القدر كانت في رمضان،

فأول ما نزل في رمضان، لكن قبل رمضان كان يأتيه الوحي على صورة الرؤية، فكان أول ما بُدِئَ به أن يرى رؤيةً إذا رآها في الليل جاءت مثل فَلَق الصبح[١]، وابتداء هذه الرؤية من ربيع الأول، فبقي ستة أشهر: (ربيع الأول، والثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان)، ثم نزل عليه القرآن في رمضان.

قال بعض العلماء: وهذا هو السرُّ في قول النبي ﷺ الرؤية الصادقة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءًا من النبوة[٢]؛ لأن رسالة النبي -عليه الصلاة والسلام- كانت ثلاثةً وعشرين سنةً ونصفَ السنةِ، فصار جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، والله أعلم.

إذنْ: كان عمرُه -عليه الصلاة والسلام- حين نُزول القرآن أربعين سنةً.

ولهذا قال بعضُ العلماء في قوله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤] قالوا: بلغ أربعينَ سنةً.

هذا أوَّلَ ما نزَل عليه القرآنُ، وله أربعون سنة، وَصِفَةُ ذلك معروفةٌ في كتب أهل العلم، ولا سيَّما في صحيح البخاري في أوَّلِه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجملةُ مؤكَّدَة بمؤكِّدَين فقط: بـ«**إنَّ**» و«**اللام**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التعبيرات، باب رؤيا الصالحين، رقم (٦٩٨٣)، ومسلم: كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٤).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على القرآن، وأضاف التنزيلَ إلى رب العالمين، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ لجميع العالمين ما دام المنَزِّلُ له هو ربُّ العالمين؛ فإنَّه يكون لكلِّ العالمين.

وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: ﴿ٱلْأَمِينُ﴾: هو وصفٌ لازِم له، وحَسُنَ وصفُه هنا؛ لأنه نزل بأعظمِ أمانةٍ، ألا وهي القرآن، فلهذا وُصِفَ بأنه أمين، وكما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

وقوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إنما ذكر محلَّ نُزوله، وهو القلب، إشارةً إلى عقل النبي ﷺ له، وأنه نزل على محلِّ العقل، الذي هو القلب.

و«**اللام**» هنا في قوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ لام التعليل، أي: لأجل أن تكون من المنذرين.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾ متعلق بـ: ﴿نَزَلَ﴾ يعني: نزل بلسان عربي مبين، أي: بلغة عربيَّة نسبةً للعرب، وهم الذين كان منهم الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ هل هو بَيِّن أو مُبَيِّن، أو هما جميعًا؟ الجواب: هما جميعًا، فهو بَيِّن لنفسه، مُبَيِّنٌ لغيره.

فالشاهد: أن هذه الآية تدل على أن القرآن نزل من عند الله، وأن الواسطة بين الله والرسول هو جبريلُ -عليه الصلاة والسلام-، وأن القرآن نزل بلسان عربي.

وسيأتينا في هذه الرسالة -إن شاء الله تعالى- حكم ترجمة القرآن الكريم للغات الأخرى[1].

* * *

«وقد كان لجبريل -عليه السلام- مِن الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة، والقرب من الله تعالى، والمكانة، والاحترام بين الملائكة، والأمانة، والحسن، والطهارة؛ ما جعله أهلًا لأن يكون رسول الله -تعالى- بوحيه إلى رسله.

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

وقال -تعالى-: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم:٥-٧].

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وقد بيَّن اللهُ -تعالى- لنا أوصافَ جبريلَ الذي نزَل بالقرآن من عنده، وتدل على عِظَم القرآن، وعِنايته -تعالى- به، فإنه لا يُرسَل مَنْ كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة».

الشـــرح

هذه صفات عظيمة، وقد جاءت الأدلة على هذه الأوصاف.

(١) انظر تحت عنوان ترجمة القرآن من هذا الكتاب (ص:٢٢١).

ومنها قوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ... ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا دليل على الكرم، وقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ هذا دليل على القوة، وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أنه قريب من الله -عز وجل-، وقوله: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذو مكانة، وقوله: ﴿مُّطَاعٍ﴾ وهذا دليل على أنه ذو احترام، قوله: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ هذه أمانة، وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥] أي: شدة قوته، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ هو الحسن، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال العلماء: على هيئة حسنة، وقال -تعالى-: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢] وهذه الآية دليل على اتصافه بالطهارة.

ولهذه الأوصاف العظيمة التي اتصف بها جبريل -عليه السلام- كان أهلًا لأن يكون الحامل لكلام الله -عز وجل- إلى رسلِه -صلوات الله وسلامه عليهم-، وقد بيَّن اللهُ -تعالى- لنا أوصافَ جبريل الذي نَزَلَ بالقرآنِ مِن عنده، وهذا البيانُ يدُلّ على عظمة القرآن، وعناية الله تعالى به، فإنه لا يُرسَل من كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة، فكونُ الله يصف جبريلَ بهذه الأوصاف العظيمة دليلٌ على عِظَم ما أُرْسِل به؛ لأنه لا يُرْسَل بالأمور العظيمة إلا مَنْ هو عظيمٌ، ولهذا يفرق الرجلُ بين أن يُرْسِل الخادم ليأتي إليه بخبز من البقالة، وبين أن يرسِل خادمًا آخر إلى رئيسٍ، أو وزيرٍ، فيكون الثاني أعظمَ وأحقَّ من الأول.

***

٢- أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

«أوَّل ما نزل من القرآنِ على وجه الإطلاق قطعًا الآياتُ الخمسُ الأُوْلَى من سورة العلق، وهي قولُه -تعالى-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]».

الشـرح

ينبغي لنا أن نعرف أولَ ما نزل من القرآن، وآخرَ ما نزل؛ لأنه من مهمات معرفة المتأخر والمتقدِّم، وذلك أنه لو جرى تعارُضٌ لا يمكن الجمع بينه علِمْنا أن المتقدِّمَ منسوخٌ بالمتأخِّر، فلا بُدَّ أن نعرِف أول ما نزل.

قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أمرَ جبريلُ -عليه الصلاة والسلام- رسولَ الله ﷺ أن يقرأ فقال: ما أنا بقارئ، ومعنى قوله: «**ما أنا بقارئ**»، أي: أني لا أحسن القراءة، وليس مرادُه العصيانَ، بل أخبره أنه ليس بقارئ؛ لأن النبي ﷺ كان أُمِيًّا، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فهو لا يقرأ ولا يكتب.

قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وهنا ذكر ابتداء خلق الإنسان؛ لأنه من المناسب جدًّا في هذا المقام الذي هو ابتداء الشرع، فذكر اللهُ ابتداءَ الخلق، وابتداءَ الشرع، فابتداءُ الخلق: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وابتداءُ الشرع: أنَّ هذا أولُ ما نزل من القرآن.

وقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾

الإنسانُ: اسم جنس، وهو للعموم، أي: خَلَقَ كلَّ إنسان من علق، وفي آيات أخرى أن الله خَلَقَهم من نُطْفَةٍ، وفي آيةٍ أخرى من ماءٍ مهين، فكيف عَدَل في هذه الآية عن النطفة، والماء المهين إلى العلقة؟

الجواب: لأن العلقةَ إذا انتقلت النطفةُ إليها، فإنه هذا يدُلّ على ابتداء خلق الإنسان؛ لأن العلقَةَ عبارةٌ عن دودةٍ حمراءَ، وهي أولُ الدم وأول الجسم، فلهذا ذكر الله -سبحانه وتعالى- هذا، أما قبل ذلك فهو عرضة للفساد.

قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾ «**الواو**» للاستئناف، و﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ اسم تفضيل من الكرم، قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ قال بعضُهم: إنَّ هناك شيئًا محذوفًا، والمعنى: الذي علَّمَ الكتابةَ بالقلم، ولكن الذي يظْهَرُ أنه لا حاجَةَ للتقدير، وأن المعنَى عَلَّمَ بالقلم كيف نَكتب به، وإذا دار الأمرُ بين الحذف وعدمِ الحذف، حُمِل الكلامُ على عدم الحذف؛ لأنه الأصلُ، وذُكِرَ القلمُ؛ لأن هذا القرآنَ الكريم يُحفَظ في الصدور، ويُحفْظ بالكتابة، والكتابةُ طريقُها القلم.

قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: كل إنسان، قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما قال الله -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

إذا قال قائل: أين العائدُ إلى الموصول في قولِه: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؟

فالجواب: محذوفٌ، وتقديرُه: ما لم يعلمه.

فالشاهد: أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن.

فإن قال قائل: إذا كانت أولَ ما نزل من القرآن، فلماذا لا تكون هي أولَ القرآن؟

الجواب: لأن الفاتحةَ هي أمُّ القرآن، فهي كالعنوان للقرآن الكريم، وما بعدها تفصيلٌ له، ولهذا لا تكاد تجد معنًى من القرآن إلا وقد تضمَّنَتْه سورةُ الفاتحة إيماءً إليه، ولذلك صارت هي الأُوْلَى في القرآن.

* * *

«ثم فَتَرَ الوحيُ مدةً، ثم نزلتِ الآياتُ الخمسُ الأُولى من سورةِ المدَّثِر، وهي قولُه -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]».

الشـرح

قوله: «**ثُمَّ فَتَرَ الوحيُ**» والحكمةُ من فُتُور الوحْيِ وعدَمِ تتابُعِه في أوَّلِ الأمر؛ لِيشتدَ شوقُ الرَّسولِ -عليه الصلاة والسلام- إليه كما وقع فعلًا، فإنه لما فَتَر صار النبيُّ ﷺ يخرُج ليتطلع إلى جبريل -عليه الصلاة والسلام-؛ حتى إنه ليهمُّ أن يتردَّى من قِمَم الجبال -صلوات الله وسلامه عليه-[1]، من شدة شوقه إلى الوحي، فكان من الحكمة أن الله -عز وجل- أَخَّرَه فترةً من الزمن، واختلف العلماءُ فيها، ولكن المهم أن الله -تعالى- أخَّره إلى وقتٍ يشتاق النبيُّ ﷺ إليه اشتياقًا كاملًا.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أصلُها -من حيث الوزن الصرفي-: (المتَدَثِّر)، لكن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ، رقم (٦٩٨٢).

قُلِبَتِ التاءُ دالًا لعلةٍ تصريفية.

والمدَّثر: لابس الدِّثار؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**دَثِّرُونِي، دَثِّرُونِي**»[(١)].

قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمره الله -تعالى- أن يقومَ ويُنْذِرَ، وألّا يَرْكَنَ إلى الكسلِ، والخمول، بل يكون نشيطًا، وينذر الناس.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ «**ربَّ**» هنا مفعولٌ مقدَّمٌ لِـ(كَبِّرْ)، و«**الفاء**» هنا لتزيين اللفظ، وقيل: إنها عاطفة، والأصل: (فرَبَّك كبر).

وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ الثياب: قيل: هل هي الثياب الحسية، أي: طَهِّر ثيابك من النجاسة، وقيل: الثياب المعنويَّة المشار إليها في قوله -تعالى-: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، والصواب الثاني، وهذا هو المهم، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ يعني: الأوثان. ﴿فَٱهْجُرْ﴾.

فأمره الله تعالى بهذه الأمور الأربعة؛ فقام -عليه الصلاة والسلام- وأنذرَ، ولهذا قال العلماءُ -رحمهم الله-: إن النبيَّ ﷺ صار نبيًّا بآيات العلق، وصار رسولًا بآيات المدَّثِر، وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-: «نُبِّئَ باقرأ، وأُرْسِل بالمدَّثِر»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، رقم (٤٩٢٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي على رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

(٢) الأصول الثلاثة، والقواعد الأربع (ص:٢٠).

«ففي (الصحيحين): صحيح البخاري ومسلم[١]، عن عائشةَ -رضي الله عنها- في بدء الوحي قالت: حتَّى جاءَه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه الملَكُ، فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ» يعني: لست أعرف القراءةَ، فذكر الحديثَ، وفيه: ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وفيهما[٢] عن جابر -رضي الله عنه-، أن النبيَّ ﷺ قال -وهو يُحَدِّث عن فترة الوحي-: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ...» فذكر الحديثَ، وفيه، فأنزل الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]».

الشرح

قوله: «جاءه الحق» يعني: الشرعُ أو القرآنُ.

وقوله: «في غار حراء» هو غارٌ في جبلٍ على يمين الداخلِ إلى مكة من جهةِ الشَّرائع، وهو جبلٌ معروف، ويسميه أهلُ الحجاز: (جبل النور)؛ لأن الله أول ما أنزل فيه القرآن، والقرآن نور، كما قال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤] لكن تسميته باسمه الأول المعروف في عهد الصحابة هو (غار حراء، أو جبل حراء) أحسن.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، رقم (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

قوله: «فجاءه المَلَكُ» «أل» هنا للعهد الذهني؛ لأن المَلَكَ هنا هو جبريلُ -عليه السلام-.

فإن قال قائل: هل نقول: إن السُّنَّةَ هي المصدرُ الثاني للتشريع، وهل نقول: إن النبيَّ ﷺ مشرِّعٌ، كما أن الله -تعالى- مشرِّعٌ؟

فالجواب: إن قيل إنها المصدر الثاني، بمعنى: أننا لا نقبلها إلا في المرتبةِ الثانيةِ فهذا غلط؛ لأنها بمنزلة القرآن.

وأما إن قيل: إنها المصدر الثاني من حيثُ العدد لا من حيث الترتيب، فلا بأس.

فإن قال قائل: هل يتعارضُ قولهُم: «نُبِّئ بـ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ مع قولنا المتقدِّم: وكان ستةَ أشهرٍ يرى الرؤيا الصادقةَ؟

فالجواب: لا يتعارضُ؛ لأنَّ الرؤيا الصالحةَ قد تكون من غير الرسول، لكنها كالمقدِّمَةِ.

فإن قال قائل: هل حُكْمُ ما أنزل الله متعلِّقٌ بتوحيد الألوهية، أم بتوحيد الربوبية؟ وما الذي يترتب على هذا؟

الجواب: الواقع أن الحكمَ من باب توحيد الربوبية؛ لأن الذي يملِكُ الحكمَ والتشريعَ هو الربُّ -عز وجل-، ولهذا ففي حديث عدي بن حاتم، لما أنزل الله هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، قالوا: يا رسول إنا لسنا نعبدُهم، قال: «**أَلَيْسَ إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قلت: بلى، قال:

«فَتِلْكَ عِبَادُتُهُمْ»[1]، فعلاقتُها بتوحيد الربوبية أقوى من تعلقها بتوحيد الألوهية، ومن جهة أخرى نقول: لها علاقة بتوحيد العبودية؛ لأن من الشرائع أن يتعبد إلى الله، فإذا تعبد بغير شرعه، فقد أخل بالعبودية؛ لأن من شرط العبادة الإخلاصَ والمتابعةَ.

فإن قال قائل: هل ما كان معلومًا من الدين بالضرورة يحتاج هو الآخر إلى إقامة الحجة؟

فالجواب: نعم، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: من أنكَرَ وُجوبَ الصلوات الخمس وهو حديثُ عهدٍ بإسلامٍ، أو في باديةٍ بعيدة، فإنه لا يُحْكَمُ بكفره حتى يُبَلَّغ.

ثم إن القول: بأن هذا معلوم من الدين بالضرورة أمرٌ نسبيٌّ، قد يَرَى بعضُ العلماء أن هذا من المعلومِ من الدِّينِ بالضَّرورة، وقد يَرى آخرُ خلافَ ذلك.

***

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة براءة، رقم (٣٠٩٥).